محاضرة 03:

أثر المعتزلة في النقد الأدبي

01ـ نشأة المعتزلة:

سار الصحابة والتابعون والسلف من بعد الرسول (ص) على مذهب ينهون فيه عن الخوض في المتشابهات، وعن الجدال في الدين. واطمأنت قلوبهم إلى هذه الطريقة. ولكن ما لبثت الفتن والخلافات السياسية في أواخر عهد عثمان، وعهد علي رضي الله عنهم أن دبّت بينهم واستتبعت هذه الخلافات السياسية خلافات في مسائل العقيدة والدين، وظهر الجدل حول الخلافة وصاحب الحق فيها، والأحداث التي تمر بها الأمة ولعلّ من أسبق المسائل الدينية التي بدأ الخوض فيها مسألة القضاء و القدر، وانقسام الناس حولها إلى جبرية (الإنسان مجبور في أفعاله) والقدرية (التي تعتنق حرية الإرادة). إلى جانب مسائل أخرى كحكم مرتكب الكبيرة وانقسام الناس حوله بين من يراه كافرا (الخوارج). ومن يراه مؤمنا منافقا (الحسن البصري) وهو المناخ الذي نشأت فيه فرقة المعتزلة، وقد ظهرت المعتزلة إلى الوجود في العصر الأموي. ولكنّها شغلت الفكر الإسلامي في العصر العباسي ردحًا طويلا من الزمن. على الرغم من أن هناك من يرى بأن المعتزلة اسم أُطلق على قوم من أصحاب " علي" رضي الله عنه اعتزلوا السياسة، وانصرفوا إلى العقائد على أن الرواية الشائعة تقول إنّ التّسمية جاءتهم بسبب الخلاف حول مسألة مرتكب الكبيرة وهي كلمة أطلقها المعتزلة أنفسهم على أنفسِهم لاعتزالهم أقوال جميع الفرق التي أخطأت في نظرهم الحكم على مرتكب الكبيرة. وذهب المعتزلة إلى أنه في منزلة وسطى بين منزلتي الكافر والمؤمن، وسمّوه " فاسقا " وخالفت المعتزلة آراء الخوارج، وتركت مجلس الحسن البصري، فسُمّيت بالمعتزلة. و أوّل من رماهم بهذه التسمية الحسن البصري حينما تطاول عليه تلميذه "واصل بن عطاء" واعتزل

مجلسه إلى أسطوانة من اسطوانات المسجد. يقرّر ما أجاب به. وامتاز المعتزلة من بين سائر الفرق السلامية بحرية الرأي، والاعتماد على العقل اعتمادا شديدا.

02 ــ جهود المعتزلة في ساحة النقد الأدبي:

كانت فرقة المعتزلة فئة نشيطة بين النقاد والبلاغيين العرب، واضطلع المعتزلة منذ أول أمرهم بمهمة الدّفاع عن الإسلام، والرّد على خصومه، فاستلزم ذلك منهم ثقافة بأصول الأديان، واضطرّهم أن يتعمّقوا في دراسة الفلسفة والمنطق ليردّوا على هؤلاء الأعداء. وكانت مجادلة الخصوم تدفعهم إلى العناية بفن القول وأمور البيان. واشتهر منهم رجال وعلماء كُثْرٌ في ساحة الأدب والنقد والبلاغة. كالجاحظ، وبشر بن المعتمر، وعمرو بن عبيد، والرماني والمرزباني، والشريف المرتضى، والزمخشري. وقد كانت قضية إعجاز القرآن من أبرز القضايا البلاغية واالنقدية التي انصب عليها اهتمامهم، إلى جانب قضية المجاز، وقضية اللفظ والمعنى، وقضايا أخرى. ففي البيئة الاعتزالية وُلدت كثير من المصطلحات النقدية والبلاغية كمصطلح "مراعاة مقتضى الحال" و "موافقة المقام للمقال". وقدّم الجاحظ أول تعريف دقيق للاستعارة بأنها تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه. وكان أول من تلقّف مصطلح " البديع " من أفواه الرواة. وأول من توسع في الحديث عن "الألفاظ" و "مخارج الحروف"، وما يشترط في اللفظة الفصيحة، و أوّل من تحدّث عن "السّرقات الشعرية" فبيّن أنّ هناك معاني عامة يشترك الناس في معرفتها والأخذ بها، وأذاع المعتزلة مصطلح " النظم" والملاحظ في مباحث المعتزلة اختلاط مسائل النقد بمسائل البلاغة.

03 ــ أثر المعتزلة في حركة النقد:

وقد كان أثر المعتزلة فيمن جاء بعدهم أثرا عميقا. فنجد صدى بِشر بن المعتمر عن تخيّر الأوقات التي يُسمح فيها القول في وصية أبي تمام للبحتري. كما أخذ ابن قتيبة أصداء هذه الفكرة في مقدمته على الشعر والشعراء، واستفاد ابن قتيبة أيضا من حديث الجاحظ عن

قضية القديم والحديث، فسلك مثله المسلك المعتدل، وأقبل ابن المعتز على بيان الجاحظ واستفاد من تدوينه للبديع وحديثه عن شعرائه كبشار ومسلم و العتابي وغيرهم، وتأثر ابن وهب بآراء الجاحظ تأثُّرًا واضحًا وغيرهم كثر ممن تأثّروا بآراء الجاحظ ، فقد تركت كتاباته بصماتها في جميع من جاء بعده. فكذلك أخذ عنه الباقلّاني، والتوحيدي، وابن سنان الخفاجي. ونقل العسكري كلام الرُّماني عن التشبيه والاستعارة. واعتمد ابن رشيق في كلامه عن البيان على ما كتبه الرُّماني، وتأثر السّكاكي بالكشّاف للزمخشري. ويبدو من الواضح أنّ نشاط المعتزلة النقدي كان واسعًا خصبًا، فقد طرقوا قضايا كثيرة، وإن كانت القضية الأساسية الكبرى التي شغلت اهتمامهم هي قضية القرآن، وما تفرّع عنها من مسائل الإعجاز وغيرها.